استطرافُ البعيد

قال سهل بن هارون[1]: (**الناس موكَّلون بتعظيم الغريب واستِطْراف البعيد، وليس لهم في الموجودِ الرَّاهِن وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثلُ الذي لهم في الغريب القليل، وفي النادِر الشاذّ، وكلِّ ما كان في مِلك غيرهم، وعلى ذلك زَهِدَ الجيران في عالِمِهم، والأصحاب في الفائدةِ من صاحبهم، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادمَ عليهم، ويرحلون إلى النازحِ عنهم، ويتركون من هو أعمُّ نفعًا، وأكثرُ في وجوه العلم تصرُّفًا، وأخفُّ مؤونة، وأكثرُ فائدة**).

***

الغريب:

موكَّلون: جمع موكِّل، والموكَّل بالشيء هو الملازمُ له. **الاستطراف**: الاستحسان والاستجادة.

الراهِن: الحاصل لهم، والموجود عندهم. **المؤونة**: الكَلَفة والأعباء.

***

البيان:

هذه القطعة الأدبية تشتمل على تَغَلْغُلٍ لطيفٍ في بعضِ أسرارِ النفوسِ البشرية، وتوغُّلٍ دقيقٍ في بيانِ ما جُبِلَتْ عليه طبائع البَشَر من مَيْلٍ وتعظيمٍ واستئناسٍ لِمَا ليس في مِلكِها وحيازتها، وعزوفٍ عمَّا دخل في مقتنياتِها وصار إلى جَعْبَتِها.

---

[1] هو سهل بن هارون بن راهبون (أو راهيون) كاتب بليغ، حكيم، يلقب (بزرجمهر الإسلام) فارسي الأصل، اشتهر في البصرة، واتصل بخدمة هارون الرشيد، كان شعوبيا، يتعصب للعجم على العرب. وكان الجاحظ كثير الإعجاب به، قال في وصفه: ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار سهل بن هارون الكاتب. وأخباره مع الخلفاء والأمراء كثيرة. له كتاب (ثعلة وعفرة) على نسق كليلة ودمنة، قال الزركلي: لا نعلم شيئا عن مصير كتبه، إلا رسالة له في (البخل) أوردها ابن عبد ربه في العِقْد. توفي سنة 215هـ.

ولهذا المعنى حضورٌ واسعٌ في حياة الناس، فما أكثر السِّلعة التي يتشوَّف الإنسانُ إليها، ثم ما يلبثُ بعد اقتنائها أن تنطفيَ نارُ رَغبته، وتجفَّ ينابيع محبَّته، ويزهد فيها بعد إقبال، ويكون حظُّها النسيان في زوايا الإهمال، وهذا من حِكَمِ مشروعية الخِيار في الإسلام كما ذكر الفقهاء، فالنفوس البشرية من شأنها أنها **(ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه)** تعظيمًا للغريب واستطرافًا للبعيد!

وما أكثر ما تجِدُ العالِمَ الفاضلَ يزهد في علمه وفي الامتياح من نبعه أقرب الناس إليه وأخص الناس به كأهله وجيرانِه، وجاء هذا المعنى مرويًّا عن بعض الصحابة بلفظِ: **(أزهدُ الناس في العالِمِ أهلُهُ وجيرانُهُ)**، وكَثُرَتْ نِسبةُ هذه المقولة لعددٍ من الأعلام، مما يبيّن صحتها، ويؤكِّد دقَّتَها، ولهذه الظاهرة تعليلات مختلفة، منها: أن الإلف والاعتياد يكسر سلطة الإعجاب، ومِنْها أن هؤلاء المجاورين للعالِم يقولون في قرارةِ نفوسهم: هذا العالِم عندنا، متى شِئنا بادرنا وسألناه. ثم لا يلبث أن يذهب عنهم أو يذهبوا عنه ولم ينتفعوا به، ومنها أن جيران المرء وأقرباءَه يرونه في أحوال بشرية مختلفة، فربَّما صرَفَ نفوسهم عن سؤالِه والانتفاع به وقوفُهم على بعض أحوالِه الطبيعية، ومنها أن باطِن الإنسان يكون غالبًا دون ظاهِرِه في الجملة.

وهذه حالٌ مشتهرة لا تنكر، ولذلك جاء في الأمثال: **مثل العالِمِ كالعين الحارَّة، يأتيها البُعداء، ويزهد فيها القرباء.**

ولكن ربما تخلَّفَتْ بعضُ هذه التعليلات التي أشرنا إليها، فانقلبت الحال رأسًا على عَقِب، وتضاعف الانبهار مع القُرب، فقد جاء في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية ما يحكي خلاف هذه الحال، فقد روى البزار في ترجمته الحافلة للشيخ -رحمهما الله- أنه ما رأى أحدًا أكثر تعظيمًا لابن تيمية من أخيه، فيقول البزار في حكاية هذه الحال العجيبة لهذا الأخ: **(كان يجلس بحضرته كأنَّ على رأسه الطير، وكان يهابه كما يهاب سلطانًا، وكنا نعجب منه في ذلك، ونقول: من العرف والعادة أن أهلَ الرجل لا يحتشمونه كالأجانب، بل يكون**

انبساطهم معه فاضِلا عن الأجنبي، ونحن نراك مع الشيخ كتلميذ مبالغٍ في احتشامه واحترامه! فيقول: إني أرى منه أشياء لا يراها غيري، أوجبتْ عليَّ أن أكون معه كما ترون! وكان يُسْأل عن ذلك فلا يذكر منه شيئا، لِمَا يعلم من عدم إيثار الشيخ لذلك)، ولكن هذا مثال نادِر يُحفَظُ ولا يقاس عليه.

وفي الحقيقة أنه على جلالة المعنى المذكور في هذه القطعة والذي أشرنا إليه، إلا أننا ربما نستنبط منها معنى إضافيًّا عند قوله: (وليس لهم في الموجودِ الرَّاهِن وفيما تحت قدرتهم من **الرأي** والهوى مثلُ الذي لهم في الغريب القليل وفي النادِر الشاذّ، وكلِّ ما كان في مِلك غيرهم)، فالإشارة للرأي هنا في غاية الحسن، فعامة الناس عباقرة دهاة في إبداء الرأي حيالَ المشكلات التي تعرض للآخرين، بينما تعرض لهذا العبقري مشكلة يسيرة للغاية، فتجده قليل الحيلة، عظيم الضجر، كثير التردد، عسير التجاوز، لا يبرح مكانَه، كأنما يعالج قيدًا محكمًا، وذلك لأنه يواجه امتحان التطبيق العمليّ مصحوبًا بالمعرفة النظريَّة، والناجحون في هذا الامتحان المزدوج أفذاذ معدودون في مدوّنة التاريخ.

وكما يقال في المثل الروسي: **(إن تأليف عشرة كتب في الفلسفة أيسر من تطبيق مبدأ واحد)**، وهكذا يَسهل رسمُ خرائطَ الطرقِ الوعرة، لكن يعسر المضيُّ في بعضِ هذه الطرق بضع خطوات يسيرة.